تقديم

«على الباحث عندما يدرس لا ينسى أنه يعيش وعندما يعيش لا ينسى أنه يدرس» بهذه المقولة يختصر الأنتروبولوجي كلود ليفي ستروس آلية عمل الباحث الاجتماعي في مقاربته للواقع الذي يعيش، ولعلها مهمة أساسية في أن يتابع السوسيولوجي كل ما يدور حوله ويكون معنيًا به عبر إعادة النظر في دلالات ما يحدث من قضايا في عالمه.

وعلى هذا يأتي إيجاز مفاهيم ومصطلحات علم الاجتماع منذ ولادته في شرح أكاديمي قريب من فهم الناس العاديين والطالب الجامعي خطوات عملية في تلك المهمة الأساسية، إلا أن الخطوة الأهم كانت في توليف مسيرة رواد علم الاجتماع وما قُدِّم من دراسات وأبحاث ونظريات على مر العصور ومقاربة ذلك على الواقع المعاصر. .

لقد افترض التطور الاجتماعي تبصيرًا أعمق للموضوعات السوسيولوجية ومعايشة الحالة دراسيًا ـ عملًا بمقولة ستروس ـ على ضوء ما استجد من وقائع، ففي **الدين** مثلًا ـ كموضوع سوسيولوجي ـ أصبح فيه تحولات جديدة على صعيد الممارسة مع مظاهر التدين الجديد، والتدين بدوره أفرز جماعات تعمل على إعادة بناء الهوية عبر أصوليات، والحركة الأصولية رافقها ظاهرات التزام غير مسبوقة تجلت في جماعات ورموز وشعائر.

كذلك الحال في موضوع **الهجرة** فهي وإن كانت موضوعًا قديمًا في الأدبيات السوسيولوجية، إلا أنها وكظاهرة عالمية أخذت تطرح الآن مشكلات عديدة عند الحديث عن تهريب المهاجرين، الدخول غير الشرعي، اللجوء السياسي، هجرة الأدمغة وانتشار يد العمالة النسائية على نطاق واسع بين الدول حيث يتم استقدامهن للخدمة في المنازل أو للعمل في الأماكن

السياحية، مما نتج عن ذلك تداعيات جديدة في تاريخ الهجرة.

وبالمثل أيضًا يمكن القول عن مسببات التغير الاجتماعي فلم تعد تكنولوجيا القرن التاسع عشر أو مخترعات منتصف القرن الماضي هي المؤشر الوحيد عليه، مع بروز تقنيات حديثة في بداية الألفية الثالثة والحديث عن تغيير اجتماعي صارخ نتيجة دخول تكنولوجيا الاتصال وما أفرز هذا الدخول من ظاهرات على صعيد لحظة التواصل وفورية الحدث ومآثر الشبكة الإلكترونية العنكبوتية، وغيرها الكثير من الظواهر التي أخذت تبرز أمام أعين الباحثين المعاصرين على أنها «ظاهرة الزمن الآني» ولينتج عن ذلك كله مصطلحات جديدة في معجم علم الاجتماع.

وفق هذه التصور جهدت على أن أقدم للراغبين في دراسة علم الاجتماع شرحًا مبسطًا للمفاهيم والمصطلحات السوسيولوجية المتداولة، أقارب فيها الواقع بالنظرية، الظاهرة بالمفاهيم، الحاصل بالمفترض.. عبر جهد علمي متواضع يتضمن معطيات وأبحاث ونتائج دراسات عن وقائع معاشة، لهذا جاء عنوانه «**علم الاجتماع في الحياة اليومية**».

والله الموفق

مأمون طربيه

بيروت 3/ 9/ 2010

مدخل

لو تساءلنا عما يحدث من حولنا ولما يحدث، لاجتهد كثيرون في تقديم الإجابة المقنعة وغير المقنعة، وعندما يتعرض علم من العلوم لمآل الأحداث فإنه يحاول أن يقدم التبريرات والتفسيرات لما يحدث، وهذا حال علم الاجتماع الذي يجهد بالبيّنة لتقديم إجابات تتعلق بمواقف الحياة اليومية، العادات والتقاليد ومختلف التصرفات الإنسانية من أبسطها حدوثًا حتى أكثرها تعقيدًا. كأن يبحث في الجرائم المنظمة، الاغتيالات السياسية، آثار الحروب، الصراع العرقي، التفاوت الطبقي، انتشار الأمية والفقر، أسلوب حياة الأثرياء.

لكن هذا العلم لا يكتفي فقط بتناول مثل هذه الظاهرات، وإنما يتوسّع في دائرة ضوئه حتى يقدّم معطيات علمية قائمة حول ما حدث، ولماذا حدث وما سيترتب عنها من تداعيات، فهو يبرر لنا على سبيل المثال:

- ✓ ما الذي يدفع آلاف الناس لمغادرة مكان إقامتهم للعمل في مناطق نائية (ظاهرة الهجرة الدائمة).
- ✓ ما الذي يدفع الشباب للانخراط في حركات سياسية أو مدنية أو اجتماعية أو حتى «مافياوية»؟.
- ✓ كيف يمكن لثورة التكنولوجيا أن تغير الواقع الحياتي لكثير من الناس وتساهم فيما يسمى اللامساواة المعرفية (يقال اليوم أن الأمي من لا يعرف استخدام الحاسوب وليس من لا يعرف القراءة).
- ✓ لماذا العلاقة بين الرجل والمرأة في اليابان تختلف عن تلك التي في أمريكا.
- ✓ لماذا تقاليد الزواج والموت والولادة في مجتمعنا العربي لا يجري مثلها

في البرازيل أو سنغافورة أو إيرلندا. . .

وعليه نفهم علم الاجتماع على أنه:

* الدراسة العلمية لمختلف التصرفات الإنسانية في أي مجتمع بشري، حيث يشير إلى مسار العلاقات القائمة بين الإنسان والمجتمع وكيف يمكن أن يؤثر مسار هذه العلاقات على أمور حياته، وبالتالي يحاول ـ علميًا ـ شرح الكيفية التي يتطور بها المجتمع ويتقدم أو يتأخر.

* مجال علمي يعنى بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية ككل، موضوعه الأساسي هو سلوكنا اليومي بمختلف تنوعه الاقتصادي السياسي المهني والعقائدي، من هنا يعتبر علم الاجتماع من المجالات العلمية التي تتسم بالشمول والاتساع البالغ بدءًا من اللقاءات العابرة بين الأفراد في الشارع وصولًا إلى استقصاء الأحداث الاجتماعية الكبرى في العالم.

* **إنه حقلٌ معرفيٌ يتقصّى الترابط بين ما يفعله المجتمع بنا من جهة وما نفعله بأنفسنا من جهة أخرى،** لأن أنشطتنا هي التي تشكل العالم الاجتماعي حولنا مثلما العالم الاجتماعي يبني ويشكل هذه الأنشطة في الوقت ذاته، صحيح أن البشر يعتبرون أنفسهم أفرادًا يتمعتون بالإرادة والحرية الشخصية إلّا أن أنماط سلوكهم كثيرًا ما يجري تشكيلها وصياغتها بقوى خارجة عن نطاقهم قد تؤثر فيهم ولما يقدمون عليه (كالانتحار/ الطلاق/ الانحراف. . .)، لأن السياقات الاجتماعية التي نجد أنفسنا فيها تؤثر فينا جميعًا وبذاك يصبح محور علم الاجتماع الفرد والمجتمع وما ينتج عنهما من ظاهرات.

(مثال: لو توقفنا عند مسألة اجتماعية مثل: الزواج بدون أطفال (أو الإنجاب المحدد)، يتبين من بعض الاستطلاعات أن هناك رغبة لدى بعض المتزوجات في البقاء بدون أولاد، و17% من النساء يتجاوزن مرحلة الخصوبة ولا ينجبن، وكذلك ارتفعت نسبة النساء المتزوجات اللواتي قررن البقاء بدون أطفال إلى 20% (أمريكا/ 2006) بعدما كانت قرابة العشر بالمئة في العام 1980.. هذا يعني أن هناك نسبة لا بأس بها من الأزواج

ترغب ليس فقط بأن تقرر الإنجاب لاحقًا أو لعدد محدود، وإنما أن يبقوا «بدون أطفال» (child-free) فهم لا يعتقدون بأن الزواج هو من أجل الإنجاب ورعاية الأولاد؛ ولكن لماذا مثل هذا الاتجاه؟ العامل الاقتصادي برأيهم هو السبب الرئيس، فإنجاب الأولاد وتربيتهم وتعليمهم وتنشئتهم أصبح بالنسبة لهم عبئًا ماديًا مكلفًا وتزداد الكلفة مع دخوله الجامعة حيث تتضاعف مصاريف الأبناء خاصة إذا دخلوا جامعة متخصصة. لهذا يفضل من يسمون أنفسهم (childless couples) البقاء متحررين من ضغوط متطلبات الأولاد في الرعاية والدراسة والنشاطات الترفيهية... فهل أثر فينا المجتمع لدرجة أصبحنا معه غير راغبين بالمسؤولية الاجتماعية المترتبة على الزواج؟.

* النظرية الاجتماعية:

إذا كانت النظرية بمفهومها العام تعني قواعد شرح الوقائع والمواد الطبيعية والأفكار والأحداث الحاصلة في ظرف معين، فالنظرية الاجتماعية هي مجموع التقارير أو البيانات التي تفسر ما يحدث في المجتمع من مشكلات/ آفات/ أزمات/ أفعال/ تصرفات، إنها المعادلة الرياضية التي تبين علاقة متغير بمتغير آخر حيث يمكن معرفة التوقعات الحاصلة من جراء هذه المتغيرات. مثال: تشير منظمة الصحة العالمية ـ وحسب إحصاءات العام 2006 ـ أن هناك ما يقارب ال 900000 إنسان ينتحرون سنويًا، ولكن هل ينتحر جميع هؤلاء لنفس السبب أو الظروف؟ بسؤال أكثر دقة: **لماذا يُقدم الناس على الانتحار؟**

تخمينات كثيرة تُطرح على أنها الإجابة، ومنها:

1. قد يكون لديها نزوع داخلي نحو المخاطرة واللعب مع الموت.
2. أو لأنها مرت بظروف قاسية ولم تستطع تحمل أعبائها.
3. أو لأنها لا تؤمن بجدوى الحياة فوضعت حدًا لها، وغير ذلك.

إلّا أن مثل هذه التبريرات الواهية لظاهرة اجتماعية معقدة لا يسلّم بها علم الاجتماع إذ لا يتوقف عند: لماذا انتحر فلان؟ وإنّما يتحرى عن مختلف الظروف الاجتماعية التي يمكن أن تؤدي إلى ظاهرة الانتحار، وعندما يقدم

الباحثون الاجتماعيون تحليلاتهم إنما يصوغون بذلك نظرية محددة تتناول السبب الذي دفع بهؤلاء للانتحار، عندما قرر أحد رواد علم الاجتماع وهو أميل دوركايم دراسة هذه الظاهرة منذ أكثر من 100 عام، وجد أن هناك علاقة بين الانتحار وعوامل اجتماعية أخرى، لم يتوقف هذا الباحث عند الدوافع الشخصية لهذه الظاهرة بل ذهب أبعد من ذلك وبيّن كيف أنها تختلف بين مجتمع وآخر، بين جماعة وجماعة وأخرى في معدلاتها.. وبالدراسة الإحصائية للبيانات التي جمعها دوركايم عن الدوائر الرسمية لعدد المتحرين في كل من فرنسا والدانمارك وبريطانيا، وجد اختلافات عديدة في مقتضيات الانتحار، لقد بيّن في دراساته بأن السبب الرئيس الكامن ء الانتحار هو في افتقاد اللُحمة الاجتماعية وبدرجة انخفاض إيمان الناس وابتعادهم عن معتقدات دينهم ومن استنتاجاته مثلًا:

☆ إن عند البروتستانت تكون نسبة الانتحار أعلى مما هي عند الكاثوليك.

☆ إن نسبة المتحرين غير المتزوجين أكثر ارتفاعًا من المتزوجين.

☆ إن الجنود هم أكثر إقدامًا على الشهادة والموت من الناس المدنيين.

واللافت بالأمر ما وجده هذا الباحث من أن حالات الانتحار تكثر في فترات السلم أكثر مما هي حاصلة في ظروف الحرب. في فترات الاهتزاز الاقتصادي وتراجعه أكثر مما هي في فترات الرخاء الاقتصادي ..

بناء على استنتاجاته حاول دوركايم ـ وكأي باحث اجتماعي ـ أن يطور نظرية علمية اجتماعية تفسر كيف يمكن فهم تصرفات الأفراد ضمن المحيط الاجتماعي الذي ينتمون إليه، وإلى أي حد يمكن للواقع الاجتماعي (social context) أن يلعب دوره في التأثير. بيّن كيف يمكن للجماعة أو لقوى اجتماعية أخرى (الدين/ الأعراف/ التقاليد/ القيم / المؤسسات) أن تؤثر بشكل أو بآخر على تصرفات الأفراد (كما في مثال الانتحار لوحظ من معدلاته كيف تتفاوت تبعًا لمدى التزام الفرد بالدين وإيمانه به أو ابتعاده عنه، بمدى انخراطه في الجماعة أو انعزالها عنها، بمدى مشاركته في نشاطات الجماعة

أو اغترابه عنها..) وبالطبع تبقى نظرية دوركايم نسبية ليست مطلقة أو نهائية مرهونة بظروف الزمان والمكان التي حدثت، وهذا شأن كل النظريات السوسيولوجية التي تبقى محكومة بالظروف التي أنتجتها وتظل مفتوحة على دراسات واختبارات أخرى، فقد يتوصل باحثون آخرون إلى استنتاجات مختلفة.. لهذا لا شيء مطلق في العلم.

ما تقوم به النظرية الاجتماعية أنها تلقي نظرة أوسع على الأسباب التي جعلتنا على ما نحن عليه وإلى تقديم الأسباب التي تدعونا إلى الفعل والتصرف بهذه الطريقة أو بتلك، وأن ما نعتبره طبيعيًا ومحتّمًا أو ممكنًا قد لا يكون كذلك في واقع الأمر بل إن معطيات حياتنا تتأثر بقوى ظرفية..من هنا يُمكن فهم السياقات التي تكتنف تجربتنا الاجتماعية من خلال ما يعرف بالمخيّلة السوسيولوجية.

* المخيلة السوسيولوجية:

تطلب هذه المخيلة في المقام الأول أن ننأى بأنفسنا عن المجريات الروتينية لأمور الحياة ليتسنى لنا أن نلقي عليها نظرة جديدة، لأن دراسة علم الاجتماع ليست مجرد عملية اكتساب المعرفة الاجتماعية، بل يفترض في عالم الاجتماع أن يكون قادرًا على التحرر من الظروف الشخصية المباشرة ويضع الأمور في سياق أوسع. فظاهرة الطلاق مثلًا والتي تعتبر مسألة ذات شأن خاص بين رجل وامرأة قررا الانفصال، لا تغدو في مخيلة السوسيولوجيين مجرد مسألة شخصية بقدر ما هو حدث اجتماعي:

- ✓ **لماذا يحدث الطلاق؟.**
- ✓ **ما مصيرالأبناء في حالة الطلاق؟.**
- ✓ **ما هو السبب الرئيس للطلاق: البطالة أم عدم التكافؤ أو ...؟.**
- ✓ **ما هي السبل الآيلة للحد منه؟.**
- ✓ **هل كل حالات الزواج قد تؤدي إلى حالات طلاق؟.**
- ✓ **ما هو موقف الأهل / دور المؤسسة الدينية/ الهيئات الحكومية /**

المدرسة/ العمل أزاد الانفصال . . .

تتيح لنا المخيلة الاجتماعية أن الكثير من الأحداث التي تؤثر ظاهريًا على الفرد إنما تعكس قضايا أوسع منه، فالطلاق ليس حالة فردية بقدر ما يظهر كقضية عامة في المجتمع (ازدياد نسب الطلاق، يعني ذلك انهيار العديد من الزيجات وقد يكون ذلك:

1) كارثة على الأطفال، فنصبح هنا في قضية الرعاية.

2) على الزوج الذي قد يفقد عمله فنصبح في قضية بطالة، حتى تتجاوز الظاهرة حدود الخسارة الشخصية وتطال العديد من الأفراد فتغدو حينئذ قضية عامة تعبر عن أزمة اجتماعية واسعة.

وعليه يمكن فهم المخيلة السوسيولوجية على أنها الرؤية الواعية للعلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع الذي ينتمي إليه، حيث مثل هذه الرؤية تسمح لنا أن ندرك كيف يفعل المجتمع ما يفعله، وكيف نحن نتأثر إلى حد بعيد بمجريات الظروف المجتمعية، والتعبير الأدق الذي تعنيه المخيلة الاجتماعية هو أن نرى المجتمع كشيء قائم بعيد عن تصوراتنا الخاصة والتفكير فيما يحدث بطريقة غير اعتيادية وشاملة كما يشير إلى ذلك الباحث الاجتماعي (G.Wright Mills) بقوله أن المخيلة الاجتماعية أشبه بأداة تمكين (تفويض) تسمح إلى حد ما فهم التصرفات الإنسانية من أبعاد أخرى غير المنظورة، والذهاب بعيدًا في تحليلها عما يقرره أو يراه الناس العاديون. فلو تساءلنا مثلًا: لماذا تعتقد بأن بعض الناس فقراء؟ التبريرات الأولية تشير إلى مسؤولية أصحابه عنه، هم فقراء:

- ✓ لأنهم لا يعملون.
- ✓ لأنهم لا يقدرون على العمل.
- ✓ لأنهم يطردون من عملهم.
- ✓ أو لأنهم ليسوا ذوي مؤهل علمي.

✓ أو لأنهم يتكبرون على ما يؤدونه.

✓ أو لقلة الفرص المتاحة.

إلا أن ظاهرة الفقر بالنسبة لباحث اجتماعي أمريكي يدعى جون مورلاند سببه التميز العنصري في بعض نواحيه، ففي العام 1996 قام هذا الباحث ببحث ميداني حول ظاهرة الفقر ومعرفة أسبابه الرئيسة، فاستجوب لذلك حوالي 2628 مستجوبًا من مختلف الأعراق فتبين له أن السود واللاتين أقل دخلًا وأدنى مستوى اقتصاديًا والسبب في ذلك ما يلاقونه من نظرة دونية من قبل البيض، وهذا ما انعكس بدوره على تقبّلهم للوظائف والمهن، حتى أصبحوا لا يُستخدمون إلّا في أعمال وضيعة، يتقاضون عليها رواتب متدنية يحول دون تحسّن واقعهم الاجتماعي نحو الأفضل، واستنتج أن هناك سبب قانوني للتميز **(حيث يعتبرهم القانون الأمريكي مواطنون من الدرجة الثانية)** وسبب نفسي ـ ثقافي **(حيث تمايز الناس فيما بينهم على أساس العرق ترسّخ في أذهان البعض حتى أصبح بمثابة (SETEROTYPE)** وأن التمايز الاجتماعي ساهم في تمايز اقتصادي الذي أوصل بدوره إلى حالة الفقر.

* علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

هل يمكن اعتبار السوسيولوجيا علم؟ إذا كان العلم يعني «المعرفة» القائمة على نظريات منظمة واختبارات متتابعة، فإن علم الاجتماع ووفق هذا المفهوم هو المعرفة العلمية المنظمة للظاهرة الاجتماعية حيث من خلالها يسهل فهم الكثير من القضايا الاجتماعية، فلو أردنا أن ندرس ظاهرة الانحراف أو الجريمة، فالمدخل العلمي يفترض جمع المعطيات والبيانات المتعلقة بها كي يصار إلى تحليلها موضوعيًا قدر الإمكان، ولكن هل يتميز علم الاجتماع عن غيره من العلوم؟ هناك اختلاف جوهري في النظرية والتطبيق بين مختلف العلوم، فعلم الاجتماع يختلف عن الفيزياء، وعلم النفس بدوره لا يشابه في مقتضياته العلمية علم الفلك. .لهذا السبب تصنف العلوم في أقسام حيث هناك:

1) **العلوم الطبيعية**: وهي الدراسة الفيزيائية للظواهر الطبيعية ولكيفية تفاعلها وتغيرها كما هو الحال في مجالات علم الأحياء، الكيمياء، الجيولوجيا..علم الفلك.

2) **العلوم الاجتماعية**: وهي الدراسة العلمية للإنسان بحد ذاته في واقعه الاجتماعي ولطريقة تفاعله، ويبرز ذلك في أكثر من مجال دراسة أبرزها: الاقتصاد/ السياسة/ التاريخ/ علم النفس/ الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع.

تركز العلوم الاجتماعية في دراساتها على حركة المجتمع من خلال تصرفات أفراده ونمط حياتهم، وإنما كل مجال دراسي من خلال وجهة نظر علمية مختلفة: **فالأنتروبولوجيا** مثلًا تتناول الثقافات الإنسانية القديمة أو ما قبل الصناعة التي لا زالت قائمة أو اندثرت. **علماء الاقتصاد** يتوقفون عند كيف ينتج الإنسان، كيف يستهلك وماذا؟ كيف يهتم الناس بتأمين سلعهم وخدماتهم، كيف تجري المبادلات التجارية وحركة الأموال وكيف يبتدع الناس مصادر للثروة؟ **المؤرخون**: يهتمون بدراسة الأحداث في العصور السالفة ومدى تأثير وقائعها على الأيام الحاضرة، **علماء السياسة** يدرسون العلاقات الدولية، طريقة عمل الحكومات، كيفية ممارسة السلطة والنفوذ. **علماء النفس** يتوقفون عند الشخصية وما يدور في فلكها وتتأثر به، أما **علماء الاجتماع** فيهتمون بتأثير المجتمع على حياة أفراده وبالطريقة التي يتفاعلون بها فيما بينهم، يتناولون موضوعات شتى تحدث في الواقع الاجتماعي منها على سبيل المثال: المخدرات/ مشاكل الأطفال والشباب/ الحراك الاجتماعي/ الفقر/ التواصل الإلكتروني/ الجريمة/ الثقافة / التربية / العائلة/ الهجرة / الجماعات/ العمل وقضايا العمال/ الكثافة السكانية/ الصراع العرقي/ الجنوسة/ الطبقية/ الجنس / الدين/ القيم والمعايير / وغيرها من الموضوعات.

وكي ندرك التمايزات القائمة بين مجالات العلوم الاجتماعية، لنأخذ حدث معين، كارثة طبيعية/ أزمة اجتماعية/ واقع طارئ ونقدم هنا على سبيل المثال أحداث حرب تموز 2006 في لبنان، فقد توقف عندها الباحثون

بمختلف اتجاهاتهم العلمية: المؤرخون تحدثوا عن وقائع الحرب بالمقارنة مع حروب أخرى حدثت سابقًا، الاقتصاديون قدروا الأضرار الناجمة وكلفة الخسائر الحاصلة، السيكولوجيون تناولوا الصدمات الانفعالية التي ولّدتها مآسي الحرب والتأثيرات النفسية التي يمكن أن تظهر عند من شهدوا وقائعها. السياسيون توقفوا عند السبل الآيلة لتحرك الهيئات الحكومية وكيفية التدخل بالعمل الإغاثي أو طلب النجدة الدولية والتحرك الدبلوماسي.. ماذا يمكن أن يفعل علم الاجتماع إزاء هذه الظاهرة؟ سيتولى بدروه دراسة الواقع الاجتماعي المستجد وتداعياته من جراء الحرب، كيف تفرقت العائلات؟ (ظاهرة التهجير) أي حياة يعيشون؟ في ظل الأزمة المستجدة وتدمير مؤسسات عمل كبيرة ما هو مصير الموظفون؟ هل أصبحوا في عداد العاطلين عن العمل (ظاهرة البطالة) كيف يمكن إعادة بناء مؤسسات اجتماعية بديلة مع الواقع الطارئ من مستوصفات / مدارس/ أماكن إيواء...

* علم الاجتماع والحس المشترك:

غالبًا ما تأتي التحليلات الأولية حول أيّة ظاهرة اجتماعية من وراء رأي منمط عنها وتسمى الحالة هذه ب: الحس المشترك. أي أننا ـ ووفق هذه الحالة ـ نحكم على أي فعل اجتماعي أو ظاهرة حدثت بناءً على تجاربنا أو خبراتنا عنها أو بناء على ملاحظاتنا لأمور شبيهة حدثت، في الحس المشترك يتكوّن الحكم المبدئي من جراء ما نسمعه أو شاهدناه أو قرأناه أو قيل لنا..

يُستخدم الحس المشترك common sense لتقييم المواقف غير المألوفة..فلو قال أحدهم: قُتل فلان..لماذا؟ على الفور سنبادر إلى تقديم أحكام من نوع: ربما هناك خلاف مادي أو هناك خيانة وغدر أو أن السبب تصفية أو ربما عادة ثأر...، مثل هذه الأقوال غير مؤكدة بالطبع لتفسير الفعل الحاصل وإنما هي بمثابة تكهّنات تُطلق بناءً على أحداث شبيهة حصلت وقد اعتبرت غير مؤكدة أو غير واقعية لأنها استندت إلى اعتقادات وليس على معطيات بيانية.

مثال لو تساءلنا: عن ما الذي يجعل الناس تقوم بنذر معين؟ ماذا يعني

النذر أصلًا؟ من المتعارف عليه هو إحدى طرق التعبير عن الفرح. . إيفاء لوعدٍ أو التزام قطعه أحدهم على نفسه حالما يتحقق ما يتمناه، فعندما يعاني أحد أفراد العائلة من مرض مستعص ويتعافى، أو عندما تجرى لأحدهم عملية صعبة في المستشفى ويخرج سالمًا، يقوم الناذر/ الناذرة بتحقيق نذره ويأتي التنفيذ: إما من خلال عمل شاق ليكفّر عن ذنب ارتكبه (كالمشي حافي القدمين حتى مزار معين أو الصيام لأيام أو . .) وإما أن يرتدي طابع الفرح (كإضاءة معبد أو مقام ولي أو وهب مبلغ من المال لمشروع وقف أو إقامة مولد وذبح كبش) هنا يتدخّل السوسيولوجي ليسأل:

✓ ماذا يعني نذر؟ ما رمزيته؟.

✓ هل يحقق الغاية المرجوة من حيث الراحة النفسية والاجتماعية؟.

✓ كيف بدأت هذه الظاهرة وإلى ما آلت؟ هل هي نفسها في أكثر من مكان؟.

✓ ما حكم الدين بأمره . .هل يعتبره بدعة؟ وأية بدعة: حسنة/ سيئة/ غير ذلك؟.

✓ ما الطقوس والممارسات التي ترافق النذور؟ هل هي من الدين أو من العادة، مبالغ / غير مبالغ فيها؟.

تتخذ تقوى المؤمنين أشكالًا متعددة في التعبير عن التعبّد الشخصي، فيلجأ الكثير منهم إلى إبرام نذر ما، فيبرم المسيحيون نذورًا لله أو للسيدة العذراء أو لأحد القديسين. ويتعهد الناذر الذي يعد بإبرام نذر معين بممارسة عمل تقوى معين، كأن يتلو صلاة على مدة زمنية محددة، أو يلتزم بمبادرات خيرية كخدمة معوقين، أو إنارة الشموع في الأعياد الفصحيّة أو أمام القديسين في الزياحات أو في المعمودية وغيرها من المناسبات الدينية.

أما لدى المسلم فالنذر هو عمل يلتزم به تجاه الله عند حصول أمر ما أو من دون حصوله. (لله نذرٌ عليّ إذا شفيت من المرض. .) وشرط النذر أن

يكون راجحًا شرعًا مثل الصوم والصلاة والدعاء أو الصدقة على فقير[1] أو إقامة مولد.

وعند إقامة الموالد -في الوسط الإسلامي - تقرأ آيات القرآن الكريم وتنشد المدائح النبوية وتُعقد حلقات التسبيح، يجتمع الأهل والأصدقاء كافة ويذبح خروفًا وفي العادة لا يأخذ أهل البيت منه شيئًا إنما يوزع على الفقراء والمحتاجين كاحتفاء بسلامة المنذور وعلى نيته. ويتم المولد غالبًا إما في المنزل وإما في الجامع. حيث تكون الضيافة خلاله: أنواعًا من الحلوى مثل البقلاوة والشوكولا وأصناف أخرى فاخرة.

لهذا التقليد علاقة واضحة بالنزعة الإيمانية عند عامة الناس، إنه الحس المشترك الذي يتجسد اجتماعيًا عبر أكثر من فعل طقسي. يفترض تحقيقه مشاركة الجميع بل ينبغي أن يتشاركوا، فإنارة كنيسة - مسيحيًا - أو قراءة مولد وذبح فدو - إسلاميًا - قد يكون تعبير عن فرح وبمثابة راحة نفسية من حيث الوظيفة، إلّا أنه كمظهر اجتماعي موجّه للآخرين يتضمن من حيث المغزى التفاعل الاجتماعي، ولعل الدعوة إليه كإعادة إحياء للمناسبات الاجتماعية والدينية هو وسيلة لإعادة اللحمة بين المؤمنين[2].

بإيجاز:

يمكن تعريف علم الاجتماع بأنه الدراسة المنهجية للمجتمعات البشرية وفق منطويات عملية مهمة، فدراساته هي مجموع الأبحاث التي يقوم بها علماء الاجتماع من أجل إلقاء الضوء على نظرية من النظريات أو التحقق من صحة فرض من الفروض أو إضافة جديد إلى ما نعرفه مثل حل مشكلة عملية أو اختبار فرض ما في حقل دراسي، لأنه علم يقوم في الأساس على البحث

(1) المظاهر الثقافية في الديانتين المسيحية والإسلامية، إشراف وإصدار مكتب اليونسكو الإقليمي بيروت، 2008.

(2) من مظاهر النذور لدى المؤمنين الكاثوليك، ينذر البعض بأن يلبس لمدة زمنية محددة ثوبًا يشبه ثوب القدّيس الذي يتشفعون به، ونرى في هذا الإطار خلال شهر أيار العديد من النساء اللواتي يلبسن الثوب الأبيض والأزرق الطويل الذي يشبه بحسب التقاليد ثوب مريم العذراء، وذلك أيضًا لنذر معين.

الاجتماعي أي استخدام الأسلوب العلمي في دراسة الظواهر والوقائع الاجتماعية وتعديل الأفكار الخاطئة الرائجة وتشخيص المشاكل الاجتماعية والوقاية منها بعد رسم الخطط واقتراح الحلول . .فهو العلم من أجل العلم. . إذ يمكنه:

☆ الإسهام بأكثر من وسيلة في النقد الاجتماعي وفي الإصلاح الاجتماعي العملي.

☆ إتاحة الفهم المتطور لمجموعة من الظروف الاجتماعية مما يسهم ذلك في إيجاد فرص أفضل للسيطرة عليها وتوجيهها.

☆ يوفر لنا الوسائل الكفيلة لشحذ حساسياتنا الثقافية. وإدراك التنوع في القيم الثقافية.

☆ ومن الناحية العملية بوسعنا أن نتقصى عبره النتائج المترتبة لضرورة انتهاج برامج عمل وسياسات إنمائية.